



قرأت منذ سنوات كتاباً عنوانه The G.O.D. Experiments للمؤلف Gary E. Schwartz قال فيه: "إنني أحب كل المخلوقات وكل الحيوانات بما فيها التماسح والثعابين، ولكنني أترك مسافة بيني وبين الحيوانات المفترسة، لأنني إذا اقتربت منها ستؤذني".

الإنسانية لا تأتي من خلال معتقد معين، بل هي فطرة سليمة في الإنسان لا يخرج عنها إلا من صدأ قلبه، فالأدريان السماوية هي الأداة التي تجلّى القلوب من صدأها لمن أراد أن يستخدم هذه الأداة بإخلاص ليتخلص من أمراض قلبه، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

هذه المقالة تعبر عن شريحة معينة في المجتمع مريضة بحب الذات واستعظام النفس، تبتغيه من خلال احتقار الآخرين، وخصوصاً المؤسأء منهم.

ومقابلاً يوجد شريحة أخرى مناقضة تماماً، تضحي بنفسها ومالها من أجل مساعدة المساكين المؤسأء عسى الله أن يقيهم يوماً عبوساً قمطرياً كان شره مستطيراً.

طبعاً ليس كل الناس سواسية، فهناك شريحة من الأطباء تحمل بين طيات صدرها قلب الإنسان، لا تنتظر أن يطرق المؤسأء باب عيادتها، لتكتسب بهم رضا الله. بل تترك عملها وأطفالها وببلادها وتبذل مالها وتخاطر بحياتها لتساعد المؤسأء المنكوبين سواء في خيم اللاجئين أو من تحت أنقاض منازلهم داخل حدود بلد منكوب من بلاد الله الواسعة. **إنهم أطباء في قلوبهم رحمة بلا حدود.** سمعت بأحد هم في أحد الولايات يفتح باب عيادته يوماً واحداً في كل أسبوع مجاناً لأي سائل أو محروم، وعندما قرعت طبول المستغيثين في بلده المنكوب، كان من أول النازحين إليها وجر معه ثلاثة من المخلصين لا يريدون جزاء ولا شكوراً. فلهم أهدي هذه المقالة، فهم خير مثال للإنسانية في وقت يحتاج فيه الإنسان أخاه الإنسان.

الله أجرهم عنا وعن المنكوبين البائسين خير الجزاء، واحفظهم حتى يرجعوا لأهلهم وأولادهم سالمين آمنين. من الصعب معرفة الناس على حقيقتهم إذا كانت ظروف الحياة مستمرة معك على مستوى معين. ولكنك يمكن أن تستشف خبايا ضمائرهم وخفايا قلوبهم وما تكن أنفسهم عندما تعلو بك الحياة إلى ذروة الجبال ثم تهبط بك

إلى قعر الوديان كموجات ضوئية متعاقبة، فتبصر بما غفي عنك، فبصرك اليوم حديد.

قد تصعق من شدة ما تراه، هل هو الحقيقة أم مرض أصاب العيون؟

فلا أثر للصديق ولا مودة من الأخ والقريب، فلا رحْمٌ ولا رَحْمَةً ولا تراحمٌ. تتجانفي وجههم وتعوج ألسنتهم. إلا من رحم ربك، وهم قليل من قليل. فمن وقع في الحفر سقط عليه الحجر، ومن تربع فوق الجبال التمس وده الرجال.

كم مُجِدَّات رؤساء وملوك وأمراء ولكن إذا ذهب ملوكهم ذهباً. إنها تجربة تجعلك تستهزئ ببني الإنسان. فرغم مآسي العلو والهبوط ستجد أن الله عالم الكثير، فهو يلأء فيه علم.

رحم الله الشافعي حين قال:

ولا خير في ود امرئ متلون *** إذا الريح مالت مال حيث تميل
ما أكثر الإخوان حين تعدهم *** لكنهم في النائبات قليل

سأذكر قصة سمعتها، تبين حب قهر المؤسأء عند أصحاب النفوس المريضة. فأصحاب تلك النفوس العفنة تشعر بكيانها وأهميتها عندما تذلُّ قاصدتها وتهين طالبها.

لقد استخف فرعون بقومه وهو ليس من صنف المؤمنين، أما بعض المؤمنين المسلمين الصائمين فقد استخفوا بالمؤسأء وكل من طرق بابهم من المساكين {لَا يَؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ}. {فَوَلِّ مَعْرُوفًا وَمَغْفِرَةً خَيْرًا مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَنِ حَلِيمٍ} البقرة: 263.

قبل أن أذكر القصة، سأذكر تجربة جرت على القردة قرأتها في كتاب "ظل الأسلاف المنسي" Shadows of Forgotten Ancestors للكاتب كارل سakan Carl Sagan وآن درويان Ann Druyan (سأذكرها بالتفصيل في مقالة منفصلة).

التجربة جرت على أحد أنواع القردة الأكثر انتشاراً، اسمه قرد المكاك، يعيش ما بين اليابان وآسيا. وضعت مجموعة من القردة في غرفة منفردة، يأتيهم الطعام بطريقة غريبة وذلك عن طريق حبل يشده القردة داخل الغرفة.

وكلما شد أحد القردة الحبل من أجل الطعام، فإنه سيسبب صدمة كهربائية لقرد آخر لا يعرفونه موجود في غرفة مقابلة، يرونها من حيث لا يراهم من خلال مرآة ذات اتجاه واحد. وإذا لم يشد القردة الحبل فلا طعام، وستصيبهم الماجعة.

فهذا خيار شائك، إما أن يحصلوا على الطعام ويسببو ألمًا للقرد في الغرفة المجاورة، أو أن يمتنعوا عن الطعام ويختاروا الموت، خيار صعب.

فبعد أن تعلم القردة أن شد الحبل للحصول على الطعام سيسبب ألمًا للقرد الموجود في الغرفة المقابلة، تجنب أكثرهم شد الحبل وأثروا الماجعة على عذاب غيرهم.

وفي إحدى التجارب، آثر أحد القردة أن يبقى بدون طعام، واختار الماجعة حتى الموت حتى لا يسبب ألمًا لأخيه القرد، وبعد أسبوعين متواصلين من إضرابه على الطعام اضطر الباحثون لإيقاف التجربة خشية أن يموت القرد.

التجربة أثبتت أن القردة عندها المقدرة لأن تتخذ قراراً أخلاقياً وتلتزم به. ولنقارن بالمقابل مقدرة الإنسان على اتخاذ القرار الأخلاقي والالتزام به، وهل الإنسان الصائم المصلي سيلتزم بالقرار الأخلاقي الذي تعلمه من خلال دينه. فالواقع التي نسمعها عن الإنسان، هي تجارب واقعية تعبر عن سلوكه.

واللهم القصة: حدثني صديقي بقصة صادق لها صدري، عن طبيب قاسي ومريض يقايس.

إنها قصة مريض مسكين يبحث عن دواء لداء حيّر الأطباء. يوماً طرق ذلك المسكين باب طبيب مؤمن، لعل الله يجعل على يديه الشفاء. إنه مرض السرطان الذي تنهار له الأبدان، وتشحب له الوجوه.

وقف البائس يوماً هو ورفيقه على باب عيادة طبيب مؤمن عُرف عنه الصلاة والصيام. راجياً ممن يوحد الله الدواء فيما ابتلاه الله من داء.

وقف مكسور القلب على باب عيادة ذلك الطبيب عسى أن يبشره بالشفاء. ما إن رأى الطبيب ذلك المريض حتى نفحت في نفسه قريحة الكبراء، وعلت على وجهه أسارير الاستعلاء.

نسى فضل الله عليه، فوقع في الفتنة لأنه من صنف الجهلاء. فقال للمسكين إذا لم يكن عندك مال، فلماذا تطلب الدواء من العربان وتتنسى الأمريكان؟

وهل تظن أن عيادي هي جمعية خيرية لمن ليس عنده مال؟

لقد نسي ذلك الطبيب أن يشكر الله على ما فضله به على كثير من عباده، فامتحنه الله بمرض مسكين، ففتنه عندما أخذته العزة بالنفس وأصابته نفحة الكبراء.

استعلى على قاصده فمزق أحشائه. عجز لسان المسكين أن يعبر عن لوعة قلبه، فانحدرت عبرات الأسى على تجاعيد وجنتيه من نبع جفت قطراته من كثرة البكاء. وانفجرت من أحشاء ذلك البائس آهات قهر الرجال.

ما أطيب الموت أمام ذل الرجال. طرق باب الطبيب المسلم من أجل الدواء، فخرج من عنده وقد تضاعف به الداء. دخل لعنه وهو يعارض شبح الموت، فخرج من عنده وهو يتمنى الموت. اللهم إني أعوذ بك من قهر الأنذال للرجال، اللهم إني أعوذ بك من ظلم الإنسان للإنسان.

اللهم لا تجعل حاجتي إلا إليك يا وَدُود، وإن قدرت علي غير ذلك فخذني إليك أخذ رحيم يا رَؤوف.

ما أرحم الموت أمام الحاجة لأنذال. إن سائل البخيل محروم، وسائل اللئيم مذلول.

لقد قال أحد الحكماء: "ونقت المرارات كلها فلم أجد أبداً من الحاجة للناس". لقد استعاد الرسول - صلى الله عليه وسلم - من قهر الرجال، ونحن في زمان نستعيذ بالله فيه من قهر الأنذال للرجال.

إنهم أشباه رجال وليسوا برجال، فالرجال تعرف عند المحن والشدائد وإظهار الشهامة مع أخيه الإنسان.

فما بالك بإنسان يهوي إلى قبره فيم يده فلا يجد إلا لئيم يشبه الإنسان. ألم أن اللؤم هي صفة فطر عليها الإنسان؟ لو مد يده إلى قرد لأعانه ولقال له دعك من لسان الإنسان. القرد لا ينطق ولكن مازال يحتفظ بقيم انتحرت عند الإنسان. أما زلت تُعبّرُ من أن يكون القرد قريبك أيها الإنسان؟

ألا تذكر تجربة القرد الذي أضرب عن الطعام من أجل أن لا يقع جاره القرد في وجوه الآلام.

لو نطق القرد لقال إني بريء مما يفعل الإنسان. الويل لذلك الطبيب من يوم تشخيص فيه الأ بصار وهو يطرق بباب العزيز الجبار، يوم يأته الجواب: "يا هذا ليس لك عندنا اليوم جمعية خيرية، هل تذكر عبدي فلان الذي أتاكم طالباً الدواء"، فخرج من عندك مكسور الفؤاد، اليوم توفي كل نفس ما عملت، فكما تدين تدان". إنه يوم حق آت، فيه يرى الإنسان ما كسبته يداه

{وَأَحْسِنُوا ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُ الْمُحْسِنِينَ} البقرة: 195

وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل يوم القيمة: {يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تتعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم استطعتمتك فلم تطعموني، قال يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين، قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين، قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي}.

لو كان قاصد ذلك الطبيب من المشهورين، أو من الأغنياء المعروفين، لقفز من كرسيه مهلاً بالتحية والإجلال، ولرفض المال والتمس التقرب منه وهو يقول: "لا يا أبو فلان، لقد نورت المكان، فإننا نريد منك خدمة يا رجال، فإنك أخ غالى وصديق

عزيزٍ، ثم مشى معه إلى الباب مودعاً، وكلمه في اليوم التالي على الهاتف ليطمئن على صحته وأحواله. لقد انتحر ضمير ذلك الطبيب بحب الدنيا والدينار، فانحنى تحية وإجلالاً لصاحب الشهرة ومالك الدولار. رحم الله حسن البصري حين قال: "لكل أمة صنم يعبدونه، وصنم هذه الأمة الدرهم والدينار".
ويصف عروة بن الورد كيف تلتقي الناس أصحاب الغنى والثروة:

وَتُلْفِي ذَا الْغَنِيِّ وَلِهِ جَلَالٌ *** يَكَادُ فَؤَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ

إنها عيشة المؤسأء، لا يعرف طعمها إلا من دخل بوتقتها وذاق ممارتها. ولا يشعر بذلك إلا ذو إحساس عازته حاجته إلى كلاب الدنيا وطلابها، يتمنى لو تخسف به الأرض حتى لا يلوع من لسعات أحاسيسه.

هل ينتحر ويخلد في النار؟ أم يصبر على آلامه وعزاؤه الرحيم الغفار؟

إنه خيار ذو حدين، سيفقط أحشاءه بين جوانحه كيما استدار. الأول أرحم من الثاني في الدنيا، ولكن المانع هو الإيمان بالغيب ليوم مشهود تخشع فيه الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا.

إنه يوم العزيز الجبار الذي تشخص فيه الأ بصار. اللهم كما صبرت المؤسأء على ذل الدنيا فارحهم في ذلك اليوم يا رحيم، فإنك القائل وقولك الحق: إنما يوفى الصابرون أجراهم بغير حساب.

وأظن أن ابن الأحف قد ذاق طعم تلك المرارة فتأجج اللهيب بين نبضات جوانحه فصرخ متالما معبرا لما في داخله فقال: يمشي الفقير وكل شيء ضده والناس تغلق دونه أبوابها وتراه مبغوضا وليس بمذنب وبرى العداوة لا يرى أسبابها حتى الكلاب اذا رأت ذا ثروة خضعت لديه وحركت أذنابها اذا رأت يوما فقيرا عابرا نجحت عليه وكشرت أنيابها اقترب مرافق ذلك المسكين إلى الطبيب محقرا، بعد أن كان من أصدقائه، قائل له باستخفاف: عالج ذلك البائس المسكين وأننا كفيل لما تريد من ورق الدولار {وَيُطْعِمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} 8 ﴿ إنما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا } 9 ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا } 10 ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذِلِّكَ الْيَوْمِ وَلَقَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا } 11 ﴿ سورة الإنسان.

وفي الحديث: {من نَفَسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نَفَسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيمة، ومن يسر عن معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستراه الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه} رواه مسلم.

لقد انتقل ذلك المريض إلى رحمة ربه بعد أسابيع من تلك الحادثة، وارتاح في ظلمات قبره من قهر الدنيا وذل الإنسان. فيه سكنت جوارحه، وخمد لهيب أحشائه. فلا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا آهات تدوى، ولا دموع تسيل، ولا ذل يُكروع على مضاضة. لقد وقف التاريخ عنده فلا ذكريات تؤلم. إنها رحمة القبور، تنسي ما في الصدور، فالدنيا سجن المؤمن وعذابه. لقد غادر الدنيا وما فيها وترك ذلك الطبيب يشخر على فراش وثيره لا يؤرقه إحساس ولا يؤنبه ضمير، بل على قلوب أقفالها.

وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهاres، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله. وإن من قلوب الإنسان ما يقضى على المؤسأء. فمن انتحر عنده الضمير، فقد إنسانيته ونام كالطفل الصغير. لا نامت عين من خرجت من قلبه الرحمة لعباد الله، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: {لا يرحم الله من لا يرحم الناس}. لقد دخل رجل الجنة في كلب أسفاه شربة ماء، ودخلت امرأة النار في قطة حبسها ولم تطعمها رغم صلاتها وصيامها. هذا جزاء من عامل الحيوان، فما بالك بجزاء من يقسوا على الإنسان. لقد قيل إن ألد عدو للإنسان هو الإنسان.

المصادر: